قُطْـــرُبُّل (*)

للأســـتاذ شكرى محمود أحمد

قرية بين بغداد وعُكْبرا ، تنسب إليها الخمور وتكثر فيها المعاصر والحانات لكثرة ما فيها من الكروم . لذلك أمّها المجان، وطلبها أهل الفتك ، وتطرح فيها الخلعاء ، حتى فتنوا بغلمانها ، وشغفوا بظبائها ، فكثر ذكرها فى شعرهم ، ودار اسمها فى قصصهم .

كانت فى أنزه موضع وأجل موقع ، تركب كاهل دجلة ، وتحاذى الصَّراة الذى يفصل بينها وبين بادوريا ، هى فى غربه وبادوريا فى شرقه .

جالها الضاحك الطروب جذب قلوب الشعراء فالوا إليها ، واحتفظت بالمجان حتى عكفوا يرتضعون دَرّ الكأس ، ويتزفون النفس فى صبوح ضاحك ، وغبوق دافق بالمتع واللذاذة ، فطوراً هم بدجلة يصطبحون ، وطوراً بالصراة يغتبقون .

ولقطربل أخبار ، وفيها أشعار — كما يقول ياقوت — فى وسعه أن يجمع كتاباً فى أجلاد يسجل أخبار الخلعاء والمجان والشعراء والبطالين والمتفجرين فى هذه المدينة[1] .

تشوق إليها إبراهيم المدبر ، وطرب لذكراها قائلاً :

طربت إلى قطـــربل وبلشكر
وراجعت عما لست عنه بمقصر[2]

وحن لها البحترى فاهتز لنظرها وقد بدت له مع الشروق ، فقال فى مدح ابن المدبر :

وقد ساءنى أن لم يهج من سبابتى
ســـنا البرق فى جنح من الليل أخفر
وأنّى بهـــجر للمدام وقد بدا
لى الصبح من قطربل وبلشكر[1]

ووصفها البيغاء الشاعر ، ذاكراً مواطن النزل والصبابة ، ومنازل اللهو والبطالة ، ومعاهد الأنس واللذة ، فقال يذكرها ويذكر كلواذى ، هى شمال بغداد ، وكلواذى فى جنوبها :

كم للصـــبابة والصبى من منزل
ما بين كلواذى الى قطـــربل
راضمتُ فيه الكأس أهيف ينثنى
نحوى بجيد رشأ وعينى مُغْزِل[2]

ذكرها جَحْظة البرمكى ، وما فيها من الخمور التى تمطر فى كل حين بقوله :

قد أسرفت فى العذل مشغولة بعذل مشغول عن العذّل
تقول هل أقصرت عن باطل أعرفه عن دينك الأول
فقلت : ما احسبنى مقصراً ما أعصرت بحر بقطربل
قالت : فأين الملتقى بعد ذا فقلت : بين الدن والمنزل[3]

أما الحسن بن هانىء فقد أكثر من ذكرها ، وأطال من حديثها ، لأنها كانت مسارب لهوه ، ومواطن خلاعته . فوصف حاناتها ورياضها ، وخمرها وسقاتها ، وذكر صحابته فيها . بل إنه أراد أن يدفن فيها .

خليـــلىّ بالله لا تحفرا لى القـــبر إلا بقطربل
خلال المعاصر بين الكرو م ولا تدنيانى من السنبل
لعلى أسمع فى حفرتى إذا عصرت ضجة الأرجل[4]

كان الكرخ مصيفه ، وقطربل مربعه ، ترضعه درها ، وتلحفه بظلها .

قطربل مربعى،ولى بقرى الكر خ مصيف ، وأى المنب
ترضعنى درها وتلحفنى بظلها ، والهجير يلتهب[5]

(*) قطربل بالضم ثم السكون ، ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام . وقد روى بفتح أوله وطائة ، أما الباء فمشددة فى الروايتين ، كانت إحدى طساسيج بغداد وهناك موضع مقابل مدينة آمد بديار بكر ، قال فيها محمد بن جعفر الحلى :

يقولون ها قطربل فوق دجلة عدمتك ألفاظاً بغـــير معان
أقلب طرفى لا أرى القفص دونها ولا النخـــل باد فى قرى البردان

(١) معجم البلدان ج ٧ ص ١٢٣ .
(٢) ياقوت ج ٢ ص ٢٧٠ وبالشكر من قرى البردان قرب بغداد تكاد تتصل بقطربل

(١) ياقوت ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٢) ياقوت ج ٧ ص ١٢١ .
(٣) ياقوت ج ٧ ص ١٢١ .
(٤) ديوان أبى نواس طبعة أصاف ص ٣٢٣ .
(٥) الديوان ص ٢٤٢ .

وهو فى القصيدة الآتية يسترسل فى وصفها ، فيذكر حانته بين الجنان الحدائق ، فى تلك الرياض المحفوفة بالشقائق ، وندمانه الغر الكماة الذين ذل لهم الدهر ، وساقيه الغرير المتوج بالريحان :

ومجلس خمار إلى جنب حانة بقطربل بين الجنان الحدائق
تجاه ميادين على جنباتها رياض غدت محفوفة بالشقائق
أقمنا بها مع فتية خضعت لهم رقاب صناديد الكماة البطارق
بمشمولة كالشمس يغشاك نورها
إذا ما تبدت فى نواحى المشارق
يدور بها ظبى غرير متـــوج
بتاج من الريحان ملك القراطق
إذا ما جرت فيـــه تغنى وقال لى
بسكر : الاهات استقنا بالدوارق[1]

وقد كان أبو نواس معجباً بخمارها « ابن أذين »[2] لأن هذا الخمار كان ظريفاً لبقاً مساعداً ، عنده شراب عتيق ، وغلمان صباح[3] . وقد ذكره فى شعره قائلاً :

اسقنى يا ابن أذين من سلاف الزرجون[4]
اسقنى حتى ترى بى جنة غير جنون
عتقت فى الدن حتى هى فى رقة دينى
ولنا ســـاق عليه حـــلة من ياسمين[5]

ويجعل الشرب فى قطربل على الورد فى نيسان ، لأن شرابها عتيق ، وليشرب الأغمار من العسل :

أشرب على الورد فى نيسان مصطبحاً
من خمر قطربل حمراء كالكاذى
واخلع عـــذارك لا تأتى بصالحة
ما دمت مستوطناً أطراف بغـداذ
تمتع شبابك بالخمـــر العتيق ولا
تشرب كما يشرب الأغمار فى ماذى[6]

(١) الديوان ص ٣٠٧ .
(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار للعمرى ص ٣٩٢ .
(٣) ذكر هذا الخبر عدا العمرى ابن منظور فى الجزء الثانى من كتابه « أخبار أبى نواس » الذى سنعده للطبع هذا العام .
(٤) الزرجون فارسية مركبة من « زر » أى الذهب و « كون » أو اللون .
(٥) فى الديوان أحد عشر بيتاً .
(٦) الديوان ص ٢٢٢

وما كان يطيب المقام لأبى نواس فى موضع من مواضع القصف والفتك على كثرتها إلا بقطربل فإنها كانت منقلبه ومرجعه .

ذكر ياقوت فى الكلام على القُفْص[1] بعد ماعرف بهذ الموضع ، وذكر ماقيل فيه من الأخبار والأشعار قصيدة لأبى نواس هى :

رددتنى فى الصبى على عقبى وسمت أهلى الرجوع فى أدبى
لولا هواؤك ما اغتربت ولا حطت ركابى بأرض مغترب
ولا تركت المدام بين قرى الكر خ فبُورى فالجوسق الخـرب
وباطُرنجى فالقفص ثم إلى قطربل مرجعى ومنقلبى
ولا تخطيت فى الصلاة إلى تبت يدا شيخنا أبى لهب[2]

وذكر ياقوت هذا الموضع فى الكلام على « بِنّا » وأورد قصيدة لأبى نواس فيها وصف جميل لخمر قطربل يجمل أن نضمها بين أيدى القراء هى[3] :

سقيا لبنا[4] ولا سقياً لمانات سقياً لقطربل ذات اللذاذات
وإن فيها بنات الكرم ماتركت منها الليالى سوى تلك الحشاشات
كأنها دمعة فى عين غانية مرهاء رقرقها ذكر المصيبات
تنزو إذا مسها قرع المزاج كما تنزو الجنادب أوقات الظهيرات
وتكتسى اؤلؤات من تعطفها عنـد المزاج شبيهات بواوات

ومن ذكر هذه القرية فى مواطن كثيرة من شعر أبى نواس غير ماذكرنا . ويجمل بنا أن نثبت أخيراً هذه القصة التى ذكرها الصولى عن بعض بنى نوبخت ورواها ياقوت فى معجمه[5] قال : لما انصرف أبو نواس من مصر فى طريقه إلى العراق ، اجتاز بمدينة حمص ، فرأى كثرة خمارها وشهرة شرابها . فأقام بها مدة يغتبق ويصطبح ، وكان بها خمار يهودى إسمه « لاوى » فقال لأبى نواس : كيف رأيت مدينتنا هـذه ؟ فأجابه : حدثنا بعض

(١) ياقوت ج ٢ ص ١٣٢ .
(٢) هـذه القصيدة غير موجودة فى الديوان وهى فى ياقوت ج ٢ ص ١٣٢ .
(٣) ياقوت ج ٢ ص ٢٨٦ .
(٤) فى الديوان : « سقياً لمانى ولا سقياً لمانات » والصحيح ما ذكره ياقوت فى الجزء الثانى ص ٢٨٦ . وهى فى ياقوت الثلاثة الأبيات الأولى
(٥) ياقوت ج ٢ ص ١٣٢